في بيتنا قط

كان عليّ انتظار قدوم الليل بستائره السوداء وسكونه الآمن .. إنه أفضل وقت تستمتع فيه القطط .. تجمع فيه بين النقائض السكون والحركة .. النوم واليقظة .. الحذر والمغامرة .

مر النهار طويلاً كئيباً وأنا محاصر في مخبئي .. تأخذني الظنون كل مأخذ .. أفكر في مصيري ومستقبلي ..

ذهبتُ بخيالي هناك إلى الوطن .. ذلك السجن الكبير .. المليء بالقطط الراغبة في الانعتاق والتحرر .. المتواكلة والمتكاسلة عن فعل أي شيء من أجل تحقيق هذه الرغبة .

لم تغب قطتي البعيدة عن خيالي طيلة الوقت .. دعوت لها كثيراً بالتوفيق في حياتها الجديدة .. لم أستطع إبعاد صورتها عن مخيلتي رغم محاولاتي الكثيرة .

أخيراً جاء الليل يجر معه العتمة جراً .. ويدفع أمامه السكون والأمان دفعاً .. طبع على المكان هدوءً مريبًا ..

سمعتُ موائها اللذيذ .. أطللتُ من مخبئي.. أشارت لي أن أظل حيث أنا .. قفزت برشاقة وغنج .. فروتها البيضاء الناعمة زادتها حسناً وجمالاً ودلالاً .

وقفت أمامي ..

تفحصتني بعينيها الجميلتين .. طلبت مني بدلال أن ألحقها بحذر .. قفزت عائدة إلى النافذة المشرعة .. لم أكن برشاقتها .. خصوصاً أني لم أتعاف بعد من آثار جوعي وتعبي وهزالي .

وصلت حيث وجدتها واقفة .. ابتسمت لي مشجعة .. وقفت مبهوراً وأنا أتفحص المكان .. اتساعه مربك لمن عانى مثلي سجن الغربة .. نظافته محرجة لمن عاش هناك في الوطن .. رائحته الزكية مخجلة لمن تعود عكسها .. وجدت نفسي أقف على شفا النقيض .

ضحكت من انبهاري .. دعتني للجلوس .. أكلت من أطايب الطعام الكثير الذي جهزته لي .. أنهينا وصلة الأكل بشرب أنخابٍ من حليبٍ لم أتذوق لحلاوته طعماً من قبل .. سكرتُ من السعادة والريبة .

أخيراً استعدتُ كثيراً من تركيزي بعد وجبة مشبعة وصحبة محببة .

تحادثنا طويلاً .. سردتُ لها حكاية الوطن وأهله .. تفاعلت معي كثيراً .. سالت دموعها تعاطفاً .. تأوهت في مواضع كثيرة من قصتي .. ابتسمت مشجعة .

فجأة حدث ما لم نكن نتوقعه .

سألت القطة الشابة في لهفة :

- ماذا جرى ؟
- فجأة فتح الباب .. كانت تلك سيدة الدار ..
- سيدة الدار ؟
- نعم .. لم تكن لتسمح باستقبالها لي في دارها .. خاصة أني....

غص الكهل في العبارة القاسية .. لم يتمكن من إكمالها إلا بعد أن زفر بحرقة :

- لأني قط متشرد ..
- قط متشرد ؟

تساءل القط الفتيّ في استغراب :

- نعم يا بني .. قط مطرود من وطنه مشرد بائس .. بينما هي لم تكن كذلك .. كانت تعيش في رفاهية اسرة عريقة تهتم لشأنها .
- يا للبؤس .
- حين تكون منبوذا في وطنك .. لن تتحملك أوطان الآخرين

سألت القطة في أسى :

- ما الذي حدث بعدها ؟
- أسرعت هارباً .. كمنت في الحديقة قليلاً .. سمعت بكاء منقذتي وتألمها وتقريع سيدة الدار لها على سوء صنيعها .. تألمت

كثيراً لما سمعته من اوصاف الصقتها بي .. بكيت لأول مرة مذ غادرت الوطن .. بكيت لما آل إليه حالي من ضياع .. لم يدم ذلك طويلاً .. خرج من الدار من يبحث في ارجاء الحديقة ليطردني بعيدا وربما ليقضي عليّ .

- يا للهول !

صرخت القطة الشابة .. أضاف الكهل :

- لكني أفلحت في الهرب ..

سأل الفتي في غضب ملوحاً بقبضته :

- ماذا حدث بعدها ؟

- مرت أيام دون أن اتمكن من لقائها .. حاصرها اهل الدار .. عشت ايام مريرة في صراع من أجل البقاء .. صارت عزيمتي أمضى وإرادتي اقوى .. قررت أن لا اتخلى عن منقذتي .. كانت نافذتها مغلقة طوال أيام .. تمكنت بعدها من رؤيتها .. لم تكن في نافذتها المعتادة .. ولا في حديقة دارها .. بل في مكان آخر .

- مكان آخر ؟ .. أين كان هذا المكان ؟

- لم أكن أعلم في باديء الأمر .. لكنها حدثتني لاحقا بذلك .. كانت تلك عيادة .

- عيادة ؟

- نعم .. لقد مرضت طيلة تلك الأيام حتى اضطر اهل دارها لزيارة الطبيب .. هناك كان اللقاء .

تحمست القطة الشابة فقالت :

- ماذا حدث في هذا اللقاء ؟

- كان للحظ أن يلعب دورا لصالحي للمرة الثانية مذ غادرت الوطن .. كنت اكمن في حديقة ذلك المكان .. لاحظت عدد كبير من القطط والكلاب ترتاده .. لم اكن أعلم أنه مصحة مختصة .. في ذلك اليوم حمل لي النسيم رائحة عزيزة عليّ .. لم اصدق حاسة شمي في باديء الأمر لكني قررت ان اتأكد .. هناك فقط تأكدت من صدقها .. كانت هي .. منقذتي .. كانت في حالة سيئة .. لكنها شمت رائحتي كذلك فهبت من مرقدها وقفزة تجري تبحث عني .. عادت إليها ارواحها السبعة بعد أن كادت تنفق منها حزنا لما جرى لنا .

توقف الكهل عن سرد السيرة .. انهكته الذكرى .. لكن نظرات الألحاح والفضول من القطين جعلته يواصل :

- اطمئنت على حالي وما آل إليه أمري .. تلك الليلة عدت لزيارتها .. كانت نافذتها مضيئة .. عاد الأمل والرغبة في مقاومة الغربة والمنفى تسري في عروقي من جديد .. صار للحياة طعم مختلف .. حياة بلا أمل لا يمكن أن تعاش .. تسللت إلى حجرتها ..

قضينا الليلة معاً .. قبل انبلاج ضوء النهار تسللتُ هارباً إلى مخبئي في حديقة دارها في انتظار قدوم ليل آخر .

❖❖❖

نمت طويلا كقط خالٍ من هموم .. صحوت كقط مذعور .. لا مفر لأي قط من إحدى هاتين الحالتين مهما كان وضعه ومستواه .. حلمت لأول مرة خارج أرض الوطن .. انتهى حلمي الطويل بهزة كف حانية .. فتحت عيني في ذعر .. كانت كف القطة المنقذة .. لكنها ليست لوحدها هذه المرة .. كان بصحبتها هران .. حاولت استيعاب الموقف الجديد .. تأسفت لوجود أغراب بيننا .

كان الهران على النقيض في كل شيء .. أما أحدهما فكان لطيف المظهر عكس رفيقه الذي تبدو عليه ملامح الحدة ..

رحب بي بجفاء عكس رفيقه الذي فرح بي كثيرا .. وداعبني كقط خفيف الظل ..

لم يطل التعارف طويلاً .. طلبت قطتي الأليفة مني أن أصحب الهرين .. تركتنا لتعود لنافذتها .. تأسفت لمغادرتها وتركي في حيرة .. ما كان مني إلا أن أصحبهما وأسلم أمري لهما .

منذ ذلك اليوم تغيرت حياتي تغيراً كاملاً .

يحتاج القط إلى أمل

كما يحتاج إلى الهواء

كما يحتاج إلى غذاء

لين صفو ذاك بلا مواء

مواء مواء مواء